٦ ـ الانتحار

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال السيّب بنُ رافع : وانفض مجلسُ الشيخ ، ودرجتْ بعده أعوامٌ فى عدة الشهور من حمل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلغَها من خير الدنيا وشرّها ، مما أعرفُ ومالا أعرف ؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزدىّ ، نسمع الحَسَنَ(١) ونأخذ عنه ؛ فانّا لسائران يوماً فى سكّة بنى سَمُرَة ، إذ وافقنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرعَ اليه مجاهد فالتزمه وقال : مرحباً مرحباً بذى نَسَبٍ الى القلب ؛ وسلّمتُ بعده وعانقته ؛ ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخرُ أوّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هى ؟

فضحك الرجل وقال : آلنّصرانيةَ تعني ؟ قال : نعم . قال : آخرُها من أولها كهذا منى ؛ وأومأ الى ظله فى الأرض ممدودا مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشور ليس فيه لابسُه ، وكنا فى الساعة التى يصير فيها ظلُّ كلّ شىءٍ مثليْهِ فهو مَزْجُ المسخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يارجل ؟ كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثمانها ؛ فنظرُه الى فراهة الدابة من الدوّاب والى فراهة الجارية من الرقيق سواء :

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعةَ على طريق الايوان(٢) الذى يلتقى فيه تجارُ العراق والشام وخُراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحسُنتْ بها حالى وتأثّلْتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يقبض ، ولا يبيع ولا يشترى . أما «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله فى الزمن !

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها وكيف عدْتَ تنظر اليها ؟

قال : كنت أنظر اليها بعينىّ وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضى ؛ فلما دخل بينى وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا عن قلبى وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ اليها بعينىّ وحدها ، فرجعتْ امرأةً ككل امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه النزلة ، رجعتْ أقلّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبِر !

وأنتَ فاذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبت التى كانت فيها . . . وأخطرْتَ فى ذهنك نِيةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ ، إلا النفْرةَ والمعصية ؟ إن هذا الذى كان الحبّ والهوى والعشق ، هو بعينه الذى صار الاثمَ والذنب والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هى فى نفسك ؟

قال : يارحمةً قد رحمتْ بها نفسى يومئذ ! أما والله إن الذى يقتل نفسه من حب امرأةٍ لَنَبىّ . ويحَه ! فليتخلّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسِها . وقد جعل الله للحب طرَفين : أحدهما فى اللذّة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ مامنهما بدّ . فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغشّى بها على بصره ، ثم إن هو اتجه بطرَفه السعيد الى حظّه القبيل واتفقت اللذّةُ للمحب — أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقىّ الى حظّه المُدْبِر وقعت الحماقاتُ فنوناً شتّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخراً فِعلَ اللذة فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضاً . وهذا تدبيرٌ من الرحمة ، فى تلك القوّة المدبّرة المسماة الحبّ . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام مادام تحقّقُها هو فناءَها ؟

خذْ عنى يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شىءٌ يُدْرك ، ولكنّ من عظمة الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكُه »

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علماً ، فمن أين لك هذا ، وعمّن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحى ؟

---

(١) الحسن البصرى الامام العظيم (٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصه)

قال الرجل : لا ، ولكن تعاليا معى الى الدار فأحدثكما

* * *

قال المسيّب : وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدارُ أن ربّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلتْ عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَن ؟ قال : أبو عُبَيد . قال : هيهِ يا أبا عبيد . . .

فأفكرَ الرجلُ ساعةً ثم قال : عهدُكما بى منذ تِسْعٍ فى مجلس الامام الشعبيّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ فى بقيةٍ من النعمة أتجمّلُ بها ، وكانت تُمسكُني على موضعى فى أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقيـة تَدِقُّ وتنفضُّ حتى نَكِد عيشى ووقعْتُ فى الأيام المقمِدَةِ التى لا تمشى بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوّ المُغيرِ جاء ليصطلِمَ ويُخرِبَ ويُفسِد ، فأثّر فىّ أقبحَ آثاره ، فبعتُ ما بقى لى وتحملتُ عن الكوفة الى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيّر حالى تغيّرت نفسى ، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ الى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدعُ الماضىَ فى مكانه وأمضى الى ما يستقبلُنى

فالتمستُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلما كنا فى الطريق ، سلبَنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمْرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هى الأداةُ الالهيّة ، والباقى كلُّه هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هيّنٌ والخَطْبُ يسير

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُروض اللصّ للمال والمتاع لا للناس فوضعوا فينا الأيدى الناهبة ، ومن هـذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فاذا كان ذلك فأصل السعادة فى الانسان ألا يبأ بهذه الحالات متى عرضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشر كما يراه واقعاً فى غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظّ نفسها فقد تعمى وتَزِلّ ، ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها وإلى أثره على الفاجرة كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هى فى حقائقها

قال : ومضيت على وجهى تتقاذفنى البقاع والأمكنة ، وأنا أعانى الأرض والسماء ، وأخشى الليل والنهار ، وأكابد الألم والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح قطَع الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحسره الكلال ونحتَه الثِّقل الذى يحمله ، فجاء ببنْية غير التى كان قد خرج بها . وكانت أيامى هذه عمراً كاملاً من الشقاء جعلتنى أوقن أن هؤلاء الناس فى الحياة إن هم إلا كالدّواب تحت أحمالها ، لا تختار الدابةُ ما تحمل ولا من تحمل ، ولا يُتركُ لها مع هـذا أن تختار الطريق ولا مدة السير وليس للدابة إلا شيئان : صبرها وقوتها ؛ إن فقدتهما هلكت ، وإن وهنا فيها كان ضعفها بحسب ذلك

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالانسان وراء انسانيته وإنسانية البشر جميعاً لا تبالى كيف وقع وفى أىّ وادٍ هلك ، فلا ينفع الانسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال ، وصبره الذى هو أقوى القوّة ، وقناعته التى هى أغنى الغنى ، وجهله الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكله الذى هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعماً ولا متاعاً ولا منزلةً ولا حظاً ولا جاهاً ، ولن تجدَ حمارَ الملك يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقّاءِ من السقّاء ؛ ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل : إن الذى فوق ظهرى ثقيلٌ مقيتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سمح !

ولكن بلاء الانسان أنه حين يطوحه البؤس والشقاءُ وراء الانسانية ، لا ينظر لغير الناس ؛ فيزيده ذلك بؤساً وحسرة ، ويمحقُ فى نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تُدمِّرُه غيرَ صاحبها ؛ فاذا هى وجدت مساغاً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت جعلت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً أىّ ذلك تيسر !

* * *

قال : وكنتُ أعرف فى البصرة فلاناً التاجر من سَراتها ووجوه أهلها ، فاستطرقته فاذا هو قد تحول إلى خراسان ، وليس يعرفنى أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأنما

نكبتُ مرةً ثانية بغارةٍ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعت عليّ فى هذه المرة طريقَ أيامى ، وسلبتنى آخر ما بقى لنفسى وهو الأمل !

ورأيتُ أنه ما من نزولى إلى الأرض بُدّ ، فأكون فيها انساناً كالدّابة أو الحشرة ، حياتُها ما اتفق لاما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخر من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوى الكريم ، قبل أن تسخرَ هى منى إذا جئتها ، وأنا الطامع العاجز !

وفى الأرض كفاية كلّ ما عليها ومن عليها ولكن بطريقتها هى لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغيير والتبديل وتحوُّل شىءٍ إلى شىء ، فهذا الظبى الذى يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أُكل ولا أنه افترس ومُزِّق ، بل هو عندها قد تحول قوة فى شىءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطبٌ طويل فى حكاية أوهام من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعتَ قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً . . . فتعهده فأنبته فحصده فأكله ، فذهبَ الزرع يحتجّ على آكله ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتنى أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىّ وعليك !

والانسانُ يرى بعينيه هذا التغيير واقعاً فى الانسانية عامتها وفى الأشياء جميعها ؛ فاذا وقع فيه هو ضجّ وسَخِط ، كأن له حقاً ليس لأحدٍ غيره ؛ وهذا هو العجيب فى قصة بنى آدم ، فلا يزال فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تفهم هنا ؛ بل محلُّ الاعتراض بها حين يكون الانسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللذةِ فى الأرض هو دائماً باعث الحماقةِ الانسانية

قال أبو عبيد : وذهبت أعتملُ بيدى وجسمى على آلام من الفاقة والضرّ ، ومن الخيبةِ والاخفاق ، ومن إلجاءِ السكنة وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتنى وإن يدى كيد العبد ، وظهرى كظهر الدّابة ، ورجلى كرجل الأسير ، وعنقى كعنق المغلول ، ويطلعُ قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتملُ إلا بقرص من الخبز ، ولقد رأيتنى أبذُلُ فى صيانة كلّ قطرةٍ من ماء وجهى سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لى إن سألتُ وإن لم أسأل !

وما كان يُمسكنى على هذه الحياة المُرمّقة ، تأتى رمقاً بعد رمق فى يومٍ يوم — إلا كلامُ الشعبىّ الذى سمعتُه فى مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ، فكان كلامه نوراً فى صدرى يشرق منه كلّ يوم مع الصبح صبحٌ لأيامى . ولكن بقيتْ أيامُ نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضربانٌ من الوجع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضرب عليه ، فكان الشيطان لا يجد منفذاً إلى إلا منها . وفقدتُ الصديق وعونه ، فما كان يقبل علىّ صديق إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسّم الرجل وقال : إذا فرغت الحياةُ من الذى هو أقلُّ من الممكن ، فكيف يكون فيها الذى هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحدٍ يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لاشعرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعَطَّرة . والبؤس يَقَظةٌ مؤلمة فى القلب الانسانىّ تُحَرِّم عليه الأحلام ؛ وما الحبّ من أوّلِه إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض !

***

قال أبو عُبيد : وتَضعْضعتُ لهذه الحياة المخزيَةِ وأبرَمتْنى أيامُها ، وحملتُ فىّ الميّتَ والحىّ ، ورأيتُ الشيطانَ لعنه الله كأنما اتخذنى وعاءً مُطَّرَحاً على طريقه يلقى فيه القمامة . . ؛ وظهر لى قلبى فى وساوسه كالمدينةِ الخربةِ ضَرَبها الوباءُ فأعمرُ ما فيها مَقبرتُها ؛ وعاد البؤسُ وقاحَ الوجهِ لا يستحى ، فلا أراه إلا فى أرذلِ أشكاله وأبردِها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شىءٍ من الحياء فيأتى فى أسلوبِ معتذرٍ كالمرأة الذميمة فى نقابها .

وقلت لنفسى : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عُمر أراه كالأسير أُقيم على النِّطع وسُلّ عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقم بأفظع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسنَ من تعجيلها !

وبتُّ أُؤامر هذه النفسَ فى قتلها وأحدّثها حديث الموت فسدّدتْ رأيى فيه ، وقالت : ما تصنعُ بجسم كالتعفّن أصبح كالمقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته ؟ بَيْدَ أنى ذكرتُ كلامَ (الشعبىّ) فى ذلك المجلس وأنا أحفظه كلّه ، فجعلتُ أُهذُّه[1] ما أترك منه حرفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسى لا كلاماً ، وكنتُ كلّما غلبنى الضعف رفعتُ به صوتى وأصغيتُ كما أصغى

(١) أهذ الاسراع فى القراءة

إلى إنسان يُكلِّمني ؛ فرأيت الشيطانَ بعد ذلك كاللصّ إذا طمع في رجل ضعيف منفرد ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قوياً فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان ووجدت له السكينةَ في قلبي فنمت ، فاذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به فكيف الذي رآه بعينيه ؟

رأيتُني ميّتاً في يد غاسله يُقلِّبه ويغسله كأنه خِرْقة ؛ ثم حُملت على النعش ، كأن الحاملين قد دفنوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى عليّ الامام الشعبي في مسجد الكوفة ؛ ثم دُلِّيتُ في قَعْر مُظْلمةٍ وهِيلَ التراب عليّ ، وتركتُ وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخ في الصُّور وبُعثرت الأموات جميعاً ، فطرنا في الفضاء ، وكانت النجوم غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجّهتُ بكلّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله؛ ورأيت أعمالي رؤيةً أحزنتني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ، ندَروا وتبَعْثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم ، فنظرت ، فاذا الزمن قد ظهر في أبديّته ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حَوَى كأنه لم يمض ، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أني لم أفتقِد ألم اللحظة القصيرة القصيرة ، بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد .

وجيءَ على أعين الخلْق بأنعَم أهل الدنيا وأكثرهم لذّاتٍ في تاريخ الدنيا كلِّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مَن كانَ على الأرض منذ خَلَقَها الله إلى أن طواها . ثم غُمِس هذا المنَعَّمُ في النار غَمْسةً خفيفةً كنَبْضةِ البرْق ، وأُخرجَ إلى المحشر ، وقيل له والناسُ جميعاً يسمعون : هل ذُقتَ نعيماً قطّ ؟ قال : لا واللهِ

ثم جِيءَ بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤساً منذُ خُلقت الأرض ، فغُمِسَ في الجنة غَمْسةً أسرعَ من النسيم تحرّكَ ومر ، ثم أُخرجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذُقتَ بؤساً قطّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهي تفور ، تكاد تَميّزُ من الغيظ ؛ فأيقنتُ أن لها نفساً خُلقتْ من غضبِ الله . وخرج منها عنُقٌ عظيم هائل ، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفاً صِنفاً من الخلق ؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرّةً واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد ؛ وقذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسدين فأطارَهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً وقد أجْنى العرَقُ من الفزع ؛ ثم طِرتُ أنا فيه ونظرتُ فاذا أنا محتبس في مُظلمةٍ نارّية كالهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسِهم . ولو أن بِحار الأرض جُعلَ فيها البحر فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبعْدِ مابين الأرض والسماء ، ثم تُسجرُ ناراً تَلظّى لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ، وكنتُ سمعتُ من إمامنا الشعبي أن عُصاةَ المؤمنين الموحدِّين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً وجوارحهم مَوْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبّحته فكرُمتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذّبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن : أخرج فان إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلا ذبحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرج الصوتُ من حَلقه ، إذ كان قد فَراه وبقي مَفريا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نية صالحة ، فلا تزال تسلخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسّى من السم فمات فمآن يتلظّى جوفه ، فلا تزال تَنْشأ له في النار سحابةٌ رويةٌ تبرق بالماء ، فاذا دَنتْ منه ورَجاها انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر !

وقال رجل إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي فنوديَ : أو ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون